٨ أربعة من عظماء كوميديا السينما الصامتة

بقلم : دونالد و . ماكافرى

لقد توفى أخيرًا واحد من أعظم الممثلين الكوميديين الذين شهدتهم الشاشة الصامتة ، وهو شارلى شابلن . وتوفى هارولد لويد فى عام ١٩٧١ وباستركيتون فى عام ١٩٦٦ وهارى لانجدون فى عام ١٩٤٤ ، وفى حين أن نوعية أفلامهم قد ضعفت فى الثلاثينيات ، إلا أنهم خلفوا لنا تراثًا لا يقدر بثمن من الأفلام الكوميدية القصيرة والطويلة فى العشرينيات .

ولقد تجدد فى العشرة الأعوام المنصرمة الاهتمام بالشاشة الصامتة ، وحدث ذلك نتيجة للنظرة المتجددة إلى أفلام الماضى فى المراكز الثقافية فى جميع أنحاء العالم ولأن أفلام كوميدى ومخرجى اليوم الذين أحبوا المهنة حبا جما ، قد عمدوا إلى التقليد . وأعتقد أن أبرز عمل فى هذا الحقل قد حققه ممثلو الكوميديا الفرنسيون مثل جاك تاتى فى فيلم « عطلة مسيو هولو » وفيلم « عمى » ، والممثل الكوميدى بيير اينانتس فى فيلمه « الخاطب واليويو » . لم يكتف الكوميديون الفرنسيون بتقليد كوميديا الأفلام الصامتة وإنما أحيوا التكنيك القديم الخاص بالبانتوميم والحركات الروتينية وكيفوها كل حسب مميزاته الكوميدية الخاصة . وهناك بعض الكوميديين الذين استعانوا إلى حد ما بالتراث

١ – شارلى شابلن فى دور المغفل وهو يبحث عن « خلة » لتنظيف أسنانه فى فيلم « المتشرد » – ١٩١٦
(المصدر : متحف الفن الحديث) .

٢ – لا شيء يمكن أن يغير تعبيرات ملامح وجه باستر كيتون .

(المصدر : متحف الفن الحديث)

٣ – ٤ – لقد امتازت حركات هارولد لويد الكوميدية فى مواقفه العملية التى تستهدف خلق جو من الإثارة عند المشاهدين .
(المصدر : متحف الفن الحديث)

٥ – « الولد الصغير » من تمثيل هارى لونجدون الذى دخل ميدان الكوميديا فى ظروف متباينة .
(المصدر : متحف الفن الحديث)

الكوميدى الماضى ، ومن هؤلاء الممثلين « نورمان ويزودوم » و « بيتر سيلرز » ، الممثلان الكوميديان البريطانيان ، وهاينزر وهان الممثل الألمانى ورد سكيلتون ودانى كاى وجيرى لوى ، الممثلون الكوميديون الأمريكيون .

وقد عمد المنتجون والمخرجون فى الولايات المتحدة وإنجلترا إلى إنتاج أفلام تعيد الذاكرة إلى أفلام الشاشة الصامتة ، إن الأفلام الكوميدية الروائية مثل فيلم « إنه عالم مجنون ، مجنون ، مجنون » وفيلم « هؤلاء الرجال العظام وآلاتهم الطائرة » وفيلم « السباق العظيم » قد بذلت فيها جهود جبارة لإحياء الكوميديا القديمة . واستخدمت فى هذه الأفلام السباقات والمطاردات والمشاجرات الهزلية . على أن فنا أكثر تقدمًا لأفلام الشاشة الصامتة قد ظهر فى العشرينيات وطوره ممثلون كوميديون مثل شابلن ولويد وكيتون ولانجدون . أما فى الولايات المتحدة فقد جددوا فى هذا الفن وأدخلوا عليه لمحات وخصائص دفعت بالفيلم الكوميدى حتى أوصلته إلى مستوى الفن العالمى .

وكان أكثر الممثلين الكوميديين القدماء المحببين إلى الجماهير هو « شارلى شابلن » الذى كان أول ممثل كوميدى يكسب إعجاب جمهور السينما ، ووضعه النقاد فى أسمى مرتبة فنية .

كان شارلى شابلن ملك البانتوميم وماهرًا فى الحركات الأكروباتية واللمحات الذكية التى تظهر النواحى التكنيكية التى تعلمها وحذقها فى قاعات لندن الموسيقية .

وحدث أثناء جولة قامت بها فرقة فرد كارنو الموسيقية فى عام ١٩١٣ فى الولايات المتحدة اشترك فيها شارلى شابلن ، وكانت تعرض « ليلة فى قاعة موسيقية إنجليزية » ، وقد استأجرها ماك سينيت شابلن للعمل معه مقابل ١٥٠ دولاراً فى الأسبوع . وسرعان ما التحق بفرقة أستوديو يوكيستون حيث كان يتم إعداد أفلام ذات بكرة وبكرتين . وقد ظهر شابلن فى ٣٥ فيلمًا قصيرًا فى عام واحد ، (١٩١٤) . وفى خلال هذه السنة الواحدة أصبح شابلن منتجًا ومؤلفًا وممثلاً أولاً لكوميدياته ، وقد أصاب شابلن نجاحًا

فى هذا الحفل يثير الدهشة . فى حين أن شارلى شابلن كان ناجحًا نسبيًّا على المسرح البريطانى ، فإن الصور المتحركة – حتى فى فترة تكوينها – كان توزيعها وإنتاجها كافيَيْن ليجعلا منه نجمًا عالميًّا ، وأدى ذلك إلى ظهور وتطور أعظم ممثل كوميدى فى القرن العشرين .

ولو أن شابلن قد قصر حياته الفنية على الأفلام القصيرة فى المدة من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٢٠ ، لكان بذلك وحده قد ترك أثراً قويًّا على الفيلم الكوميدى . فمثلاً تعتبر كثير من الأفلام ذات البكرتين التى ظهرت من عام ١٩١٦ حتى نهاية عام ١٩١٧ ، أفلامًا كوميدية رائعة . وفى أحد هذه الأفلام وهو فيلم « أ .م. » ، مثل وحده « سولو » دور رجل مخمور عائد إلى البيت بعد قضاء سهرة فى المدينة . وفى هذا الموقف الأساسى الوحيد الذى يشبه الموقف الذى مثله على المسرح ، تعمل جميع الأشياء فى منزله – السجاد والحيوانات المحنطة والسلم وساعة الحائط والسرير القابل للتطبيق – ضده . ونظرًا لنشوته ، فإنه يسير هنا وهناك ويقع على الأرض ثم يرتطم بالأشياء التى تعترضه ، وقد جرى فى هذا الفيلم أكثر من ٢٥ سقطة وعثرة هزلية . ومن أفلامه القصيرة الممتعة أيضًا فيلم « الشارع اليسير » ، وهو فيلم كوميدى يظهر شارلى إلى جانب القانون ، فهو ينضم إلى القوة البوليسية بعد أن يتم إصلاحه على يد فتاة جميلة أثناء اجتماع دينى .

وبعد ذلك يقرر أنه من الأفضل له أن ينزل إلى ميدان العمل ويعمل ويحيل حياته إلى نجاح . إن هذا الممثل استطاع فى فيلم واحد أن يظهر مهارته وموهبة الإبداع والخلق عنده ، وقد استطاع شارلى شابلن أن ينتزع ضحكات من الجمهور فى فيلم ذى بكرتين أكثر من أى ممثل كوميدى آخر . ولقد أخبرنى هارولد لويد فى حديث أجريته معه فى شهر يونيو من عام ١٩٦٥ أن سلسلة القفشات والحركات الهزلية التى كان يلجأ إليها شابلن للإضحاك قد حملته فى الأيام الأولى من السينما الصامتة على أن ينتهج نفس هذ الأسلوب ، وإلا فإنه كان سيتعرض للخسارة . ولقد اعتاد معظم الكوميديين على

تقديم عدد قليل من النكات الجيدة فى فيلم واحد ، إلا أنهم ما لبثوا أن شعروا بأن خيالهم بالنسبة لتصوير مشهد هزلى قد نضب معينه . على أن لويد وكيتون استطاعا أن ينافسا شابلن فى مهارته هذه وظلا يتبعان هذا الأسلوب الفنى حتى ظهور أفلامها الروائية فى العشرينيات .

لقد أنتج شابلن ثلاثة أفلام رائعة وهى « الغلام » و « حمى الذهب » و « السيرك العظيم » ، فى العصر الذهبى لكوميديا الشاشة الصامتة . إن الذى ميز أعماله فى العشرينيات هو قدرته على استخدام العواطف في أفلامه الدرامية .وتعدى الجانب الجاد من دوره فى فيلم « المتشرد » إلى حد أن بعض النقاد وصفوا هذا الجانب بأنه « حنان وشجن » شابلن ، ومعنى هذا أن المشاهدين لم يضحكوا على الرجل الصغير القامة فحسب ، وانما شعروا بالأسى من أجله . لقد لاحظ معظم النظريين – الأدباء منهم والفلاسفة – عكس ما يظنه بعض الناس ، أن التراجيدية والكوميدية لا توجدان متفرقتين أو متفرعتين ، وإنما يمكن أن يكون ثمة ارتباط بينهما . لقد كان شابلن أكثر من غيره من الكوميديين السينمائيين قدرة على استدرار الدمع والاستضحاك . وكانت هاتان القدرتان أحيانًا تتصلان .. إننا نستطيع أن نلاحظ هذا الاتصال فى فيلم « الغلام » أثناء كفاح هذا المنبوذ الاجتماعى الصغير لإنقاذ طفل فى الخامسة من العمر الذى رباه منذ أن كان رضيعًا ، حينما كانت السلطات تنقل الطفل إلى دار للأيتام . إننا نضحك على الطريقة غير العادية التى يقاتل فيها السلطات ، ثم لا يلبث أن تتحول مشاعرنا حينما يتحول شارلى فى لحظة عن الشجار ويعانق الطفل الذى أنقذه بصفة مؤقتة .

وفى فيلم «حمى الذهب» ، نرى المتشرد الصغير يراقص سيدة شابة سرعان ما يقع فى حبائل حبها ، ولكنه يشعر بمذلة شديدة حينما يبدأ سرواله « بنطلونه » يسقط شيئًا فشيئًا أثناء الرقص ، ثم يلتقط ما يظن أنه حبل منفصل ويلفه حول وسطه كحزام ، ولكن لسوء الحظ كان كلبٌ ضخمٌ مربوطاً بالطرف الآخر للحبل .. ولا نلبث نحن أن

نستغرق فى الضحك حينما نرى الرجل الصغير يسقط على الأرض بعد أن شده الكلب من قدميه وأخذ يجره . ولكن مع أننا نضحك ، إلا أننا نشعر بالأسى أيضًا للرجل الصغير .

صحيح أن استخدام شابلن لما يصفه بعض النقاد بالعنصر المثير للشفقة يبدو أحيانًا وكأنه قد عفا عليه الزمن ولم يعد صالحًا للذوق اليوم ، أو أنه مفرط فى شاعريته وعاطفيته ، على أننا نعيش اليوم فى عصر لا يحبذ الشاعرية ، وأن أى جهد للتركيز على العواطف والمشاعر لاستدرار دمعة يكون عملاً مشبوهًا ، إننى أعتقد أن عمل شابلن لن يشيخ حتى ولو أن الذوق فى الهزل يتغير مع الزمن . وفى حين أن بعض أجزاء أفلامه قد لا تعجب أذواق العصر ، إلاّ أن الأجزاء الأخرى تتفق مع ذوق العصر .

ولعل الخطأ فى أفلام شابلن الواضح هو التصميم التركيبى . إن فيلم « حمى الذهب » فيه فكرة كوميدية قوية تساعد على دفع بعض العناصر الاستطرادية نحو تأثير شامل موحد ، ولكن كثيرًا من أعماله تبدو أنها غير متجانسة فى التركيب . على أن هارولد بويد وباستركيتون أقدر على وضع قصص « محبوكة » بدقة متناهية . ولقد طالما تغاضى النقاد عن هذا الضعف عند شابلن ، ولكنه جزء هام للعملية الخلاقة فى إنتاج الروائع الكوميدية .

ومع أن النقاد قد تغاضوا عن بعض أخطاء هذا الكوميدى ، فإن إشادتهم بإبداعه الكوميدى وتمثيله صادرة عن شعور صادق . لقد كان شابلن عملاقاً فى الحركات العادية والبانتوميم الأكروباتى والأعمال الروتينية البسيطة التى تتطلب حركات يد طفيفة وتعبيرات الوجه .. ولقد استطاع أن يجعل من تدخين سيجارة وعدّ النقود عملاً مضحكاً للغاية . لقد كانت أعماله وحركاته مبنية على أساس الأطوار الغريبة لهذا المتشرد الصغير . وكان اختراعه وإبداعه الكوميدى ينبثق من طريقته غير العادية التى واجه بها العالم سواء كان هذا الخلق بمثابة صراع مع ثور أو وضع زبد على قطعة من الكعك

وبالإضافة إلى ذلك ، كان شابلن يتمتع بقدرة هائلة على التمثيل لم يتمتع بها غيره من كبار ممثلى الكوميديا ، وكان على ما يبدو يؤمن بشخصيته كمتشرد صغير ويصبح جزءًا من هذا العالم الغريب الذى خلقه من أجل شخصيته التى كان يعتقد كل واحد أنها ليست لممثل يؤدى دورًا هزليًا . لقد أصبح مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا جدا بهذا الدور حتى أن كثيرًا من النقاد وكثيرًا من معجبيه أصيبوا بخيبة أمل من شخصيته الهزلية المتقدمة ، وهى « هنرى فيردو » فى الفيلم الذى مثله فى عام ١٩٤٧ وعنوانه « مسيو فيردو » .

لقد كانت شهرة شابلن فى الثلاثينيات كبيرة جدا حتى أنه كان ينتج فيلمين كوميديين على الشاشة الصامتة . وفى فيلمه الذى ظهر فى عام ١٩٣١ وهو فيلم « أضواء المدينة » مستخدماً موسيقى مسجلة وبعض المؤثرات الصوتية ، أنتج شابلن فيلمًا آخر من روائعه فى الوقت الذى اتجهت كل صناعة السينما إلى الشاشة الناطقة . لم يعترض أحد إذْ ذاك على غياب الصوت البشرى ، وحقق الفيلم ربحًا قدره خمسة ملايين من الدولارات ، لقد كان الفيلم أقوى قصة عاطفية عالجها شابلن ، فقد كانت تتركز على حب الرجل الصغير لفتاة ضريرة ، وهو موضوع استخدمه هارى لانجدون فى فيلم « الرجل القوى » ، فى عام ١٩٢٦ . وفى حين أن معالجة شابلن لمثل هذا الموضوع المدر للدموع قد أساءت للبعض ، كما شعر جورج جان ناتان ، الناقد المسرحى فى عام ١٩٣١ ، إلا أننى أعتقد أن هذا الكوميدى قد أخرج ومثل هذا الجزء من الفيلم ، الذى يعتبر أخطر جزء فيه ، متوخيا ضبط النفس والذوق السليم . إن اللحظات الأخيرة فى الفيلم (وهى غالبًا ما أشاد بها النقاد) تبين تهدئة للعواطف والمشاعر ، فالفتاة الضريرة تسترد بصرها لأن الرجل المتشرد الصغير قدم لها المال اللازم للعملية الجراحية . وبعد أن رأته ، لم تتحقق منه إلا بعد أن لمست يده . إنه ليس الرجل الذى كانت تتخيله ، وهنا تتحطم صورة رومانسية ، ويترك الموقف معلقًا ، ولكننا نعرف أنه لن تكون هناك قصة حب . إن هذه اللحظات الأخيرة فى الفيلم تستخدم حواراً بسيطًا ونهاية مؤثرة .

ويتجنب شابلن الإفراط فى الدراما العاطفية بواسطة الاختيار الدقيق وتوخى البساطة .

ويواصل شابلن تحديه لعصر السينما الناطقة ، ويقدم فى عام ١٩٣٦ على إنتاج فيلمه « العصر الحديث » ، ومع تقديمه بعض التنازلات للشاشة الناطقة التى كانت بلغت من العمر سبعة أعوام وصادفت قبولاً من الجميع باستثناء شابلن ، لقد استخدم الصوت البشرى فى دائرة مغلقة لنظام تليفزيونى . واستخدم أيضًا جهاز راديو وجرامافون ، وبالإضافة إلى أهم تنازل قدمه وهو أن الكوميدى نفسه غنى بصوته فى نهاية الفيلم . وكانت الأغنية فيها أشعار غنائية من نظم شابلن وهى خليط من الفرنسية والإيطالية والأسبانية .

ولم يكن لهذه الأغنية معنى إلا بعد إدماج الأشعار الغنائية بالبانتوميم – وكان شابلن يقصد بذلك هجاء الأفلام الناطقة .

ويعتبر فيلم « العصر الحديث » واحدًا من القنابل الأخيرة التى فجرها نبوغ شابلن الكوميدى وبراعته التمثيلية .. إننا نشاهده وهو يتصارع مع رجال الشرطة ويواجه الشخصيات البارزة ورؤساءه ، ويقاتل هذا المتشرد الصغير بحركات قدميه المدهشة ويتزحلق بهيبة كوميدية رائعة ويتلاعب « بصينية » عليها كميات ضخمة من الأطعمة وهو يمر بين المخمورين والراقصين ، ونرى هذا الرجل الطفل وهو يقع فى حبائل الحب ، وفى حين أن بعض النقاد يعتقدون بأن هذا الكوميدى انشغل بالقدح والذم ، إلا أننى أعتقد أن هناك دفئًا كثيرًا ومرحًا فى طريقة هزله .

ويكون شابلن فى أحسن حالاته حينما يسخر من عامل فى مصنع ويتحول إلى قرد مدرب ، ويكون أيضًا فى أحسن حالاته حينما يلم شعاث هيبته ويواجه السلطة بأقصى قدر من الاعتزاز بالنفس ، وإلى جانب ذلك نرى الرقة الإنسانية المتناهية عند هذا المتشرد الذى يتطلع إلى لفتة رحيمة فى عالم بارد أنانى .

وهناك فيلمان من أفلام شابلن الصامتة التى ظهرت فى عصر الشاشة الناطقة

يستحقان بحثًا موجزًا ، فيلم « الدكتاتور العظيم » الذى ظهر فى عام ١٩٤٠ وفيلم « مسيو فيردو » الذى أنتجه فى عام ١٩٤٧ قد أسهما بنصيب وافر فى الفن الكوميدى ، وفيلمه الأول الذى ظهر فى عام ١٩٤٠ كله قدح وطعن فى حكم أدولف هتلر ، وهو يخفى اسم الدكتاتور تحت اسم مستعار « هينكل » . ومع أن الفيلم لم يصل إلى مستوى القدح الذى حققه بير تولت بريخت فى فيلم «أرتوريوى» إلا أنه – أى فيلم الدكتاتور العظيم – يعبر عن مواهب شابلن ، فهو ينتقد نقدًا لاذعًا تصرفات الدكتاتور وانتفاخ أوداجه وعنجهيته وتشنجاته وهو يخطب من على منصة الخطابة ، وثمة مشهد رائع يظهر فيه الدكتاتور يقلب فى خريطة للعالم على شكل كرة ويلهو بها ويقذفها بقدمه ككرة قدم ، ثم يرقص « هينكل » رقصة باليه مع هذه الكرة كرمز للعبث بالعالم كله .. وكانت شهوة السلطة والحكم موضع سخرية بدت فيها مهارات الكوميدى المادية ومواهبه . وإلى جانب ذلك يؤدى شابلن دورًا مزدوجًا كحلاق يهودى – وهذا الدور يمثل صورة معدلة للمتشرد الصغير ، ويرى فى أحد مشاهد الفيلم وهو يحلق « لحية » رجل فى دكانه على إيقاع موسيقى براهمز . أما فيلم « مسيو فيردو » فقد أنتج حينما كان عدد قليل من الناس يتقبل القدح من هذا الطراز . على أنه منذ عام ١٩٤٧ ، كانت رسالة السينما فى رحلة ما بعد الحرب موضع اهتمام متزايد . وكان شابلن فى فيلمه هذا قد سبق زمانه . إن مضمون الفيلم كله قريب من القدح ، وبديهى أن ينتظر من المرء أن يتساءل عن قيم دولة تثير الحرب ، بخلاف القيم لقاتل نساء ، ورجل ملتح عصرى يجمع مالاً لمساعدة عائلته . والواضح أن الغموض يكتنف الفيلم ، وكان شابلن فى هذا الفيلم وراء أعماقه . ومع ذلك فإن هذا العمل السينمائى عمل رائع إذا قيس بمهارة التمثيل عند هذا الكوميدى .

لم يكن لهارولد لويد أو باستر كيتون النفوذ والتأثير على النقاد والجمهور كما كان لشابلن ، على أن نقاد ومقيمى السينما الكوميدية يدركون الآن أن مساهمة هذين الممثلين

الكوميديين فى التمثيل الكوميدى ، كانت وافرة ، وقد استخدم كلاهما المادة القصصية بطريقة مرتبطة ارتبطاً مباشرًا بنضال شاب صغير يحاول أن يحقق النجاح فى تطور الشخصى كرجل وفى حبه وعمله – وهى موضوعات أمريكية شائعة ومألوفة ظهرت فى القصص القصيرة التى كانت تنشرها المجلات فى العشرينيات من هذا القرن .

إننى لا أرى حاجة للاسترسال فى الحديث عن تطور هارولد لويد وباستركيتون فى أفلامهما القصيرة ، حيث إن هذا التطور شديد الشبه بتطور شابلن – على أنهما احتاجا إلى وقت أطول لتحقيق الشهرة التى من شأنها أن تجعلهما ينافسان شابلن فى شهرته . ولقد تحقق لهما ذلك فى أوائل العشرينيات ، إذ أنهما أصبحا مشهورين عند الجماهير واستطاعا عندئذ أن يبدآ فى إنتاج الأفلام الروائية – وهذا عمل لم يكن يقدم عليه إلا كوميدى أصاب نجاحًا كبيرًا فى « شباك التذاكر » وقد بدأ لويد إنتاج الأفلام الروائية فى عام ١٩٢٢ ، أما كيتون فقد تبعه بعام واحد .

كان أول فيلم روائى لهارولد لويد هو « صبى الجدة » ، وهو يوضح ميل الكوميدى واتجاهه إلى استخدام السمة الكوميدية فى تحسين نفسه .. وهو يصور فى هذه الحالة شابا صغيرًا لديه مشاكل سيكولوجية – شخص ضعيف يخشى أن يستخدم حقوقه – ورجولته ومصيره . ولكنه يعالج من هذا الجبن بواسطة سحر مزور أعطته له جدته . وتقول له إن هذا السحر سيحميه من الخطر ويمده بالشجاعة ، وأخيرًا يدرك أنه يتصرف حسب اندفاعه الشخصى وغيرته حينما يلقى القبض على قاتل . وعندئذ لم يعد يشعر بالجبن بعد أن تخلص من مخاوفه القديمة ، ثم يتزوج فتاة أحلامه .

وقد تم استخدام مواد من قصص مشهورة ناجحة فى فيلم « السلامة تبقى » الذى أنتج فى عام ١٩٢٣ ، وفيلم « الفتى الجامعى » فى عام ١٩٢٥ ، إننا نرى هارولد فى السباق المناخى لفيلم « السلامة تبقى » يضطر إلى اتخاذ مكان رجل جرىء لابد له أن يتسلق حائطًا لمبنى عال . ويؤدى على المبنى خطته المثيرة التى أعدها ويواجه فى هذه

العملية عقبات يتخطاها بمنطقه غير العادى وحظه المدهش .. إن نوع الهزل المقرون بموقف خطر هو عمل وصفه لويد بأنه « الكوميديا المثيرة » . وقد استخدم أيضًا هذا النوع من المادة فى كثير من أفلامه . فى فيلم « الفتى الجامعى » يواجه الشاب المتعطش للعلم كما صوره لويد ، صعوبات فى تحقيق الشهرة لنفسه فى الكلية ويفكر فى أنه يستطيع أن يتم له ذلك بأن يكون لاعب كرة قدم ممتازاً . ونظراً لأنه كان قاصرًا كلاعب كرة قدم ، فإنه كان الرجل الأخير الذى يشركه فى المباراة . وحينما يشركه المدرب فى اللعب ، إنما يفعل ذلك قبل نهاية المباراة ببضع دقائق ، وحتى فى هذا الوقت القصير فإنه يتصرف تصرفًا خاطئًا فى كل حركة من حركات فريقه . ولكن لا تلبث هذه التصرفات الخاطئة أن تصبح تصرفات صحيحة لأنها تربك الفريق الآخر . وكما يحدث فى معظم أفلام كرة القدم الكوميدية ، يصبح المنبوذ هو البطل .

إن المفتاح لفهم السمة الكوميدية التى ابتدعها لويد تكمن فى حماس البطل ، فحماسه يعطى هذه السمة الكوميدية خاصتها المميزة ، وثمة ممثلون كوميديون بارزون ظهروا فى العشرينيات – شابلن وكيتون ولانجدون – نادرًا ما كانوا يستخدمون هذا الأسلوب فى شخصياتهم الكوميدية ، أما لويد فإنه يستخدم هذا الأسلوب كأساس لشخصيته ، ونرى أن بعض أفضل اللحظات الكوميدية فى أفلامه تجىء حينما يؤدى حماس هارولد به إلى مواقف تنتهى إلى نتائج عكسية ، ففى فيلم « السلامة تبقى » ، يضطر هارولد إلى أن يعيش متقمصًا شخصيتين ، أولاً الرجل الذى يحاول إقناع فتاته بأنه إنسان ناجح ، وثانيًا ، المحافظة على مركزه ككاتب بسيط فى مستودع . إن رغبته فى أن يجعل حماسًا مصطنعًا أمرًا ناجحًا يضطره إلى القيام بدور رجل متحمس يتسلق عمارة من العمارات .. أما فى فيلم « الفتى الجامعى » فإن شوقه إلى أن يكون مقبولاً اجتماعيًا يجعل منه مجنوناً فى أعين الناس الذين يحاول أن يثير إعجابهم به ، ويصبح شخصية مضحكة لأنه يحاول القيام بأعمال ليس هو أهلاً للاضطلاع بها ، فنراه يحاول أن يلقى

خطابًا أمام الطلاب فى الكلية ثم نراه يكافح فى مباراة كرة القدم ، وفى فيلمه « صبى الجدة » ، يفشل حماسه فى إظهار الشجاعة وهو يطارد رجلاً متشردًا ، على أننا فى كلتا الحالتين نرى أن الخطأ الذى يثير الضحك هو الفضيلة التى تحقق النصر .

ويجب أن نعود فنقول إن هذا النصر لا يتحقق بضربة من ضربات الحظ .

إن النقاد الأوروبيين الآن يرون كوميديا لويد بوجهة نظر أوضح مما نراها نحن فى الولايات المتحدة .. إننا مازلنا متمسكين بفكرة القصة الناجحة فى الحياة الحقيقية حتى إنه يصعب علينا أحياناً أن نرى هذا النمط من الإنجاز . إننا أحيانًا نوجه هذا الموقف نحو النجاح فى أعماق عقولنا ، ونجد أن الضغط الذى نتعرض له كبير جدا بحيث نشعر أن الأمر لم يعد هزلاً أو كوميديًا . إن الأوروبيين يرون قدرًا أكبر من طبيعتنا الأساسية فى شخصية هارولد لويد الكوميدية لأن لديهم الموضوعية لمراقبة مزاجنا من على بعد .

وتعتبر أفلام باستركيتون ، شرلوك الصغير والملاح والجنرال ، بارووديا – أى محاكاة – من النجاح فى الحب والعمل . إن فيلم شرلوك الصغير يظهر البطل كعامل وحيد لآلة عرض للصور المتحركة الذى يتولى أيضا كنس المسرح ويحلم فى أن يكون مخبرًا سريًّا عظيمًا قادرًا على حل أعقد الجرائم ، ويدور الفيلم كله تقريبًا حول حلمه فى أن يمارس هذا العمل الذى يحلم به . أما فيلم « الملاح » ، فهو أكثر غموضًا لأنه يظهر فى شخصيته رجل غنى فى مقتبل العمر ، ولكنه يحاول أن ينجح فى الحب ، ومحاولته تستهدف لفت نظر فتاة ليحظى بإعجابها فى نفس الوقت الذى يناضل من أجل الحياة على ظهر سفينة ركاب ضخمة من عابرات المحيطات جنحت عن مرساها . أما فيلم « الجنرال » ، فإنه يبدى تصميمه على أن يكون جنديًّا فى الحرب الأهلية ، ولأنه استخدم كمهندس قطارات ، فإنه يجد من الصعوبة بمكان أن يعفى من عمله لتحقيق هدفه ، وأخيرًا يصبح جنديًّا ، ويستطيع رجل كينون الصغير أن يحقق النجاح بضربة

حظ وبطريقته غير العادية لحل مشاكله ، وهو فى ذلك يحاكى شخصية لويد الكوميدية .

إن كل أفلام كيتون تستخدم حوادث المطاردة والقتال ، مع انبثاق سلسلة من الأحداث المثيرة المضحكة من كل موقف من المواقف التى يصادفها ، وهو مثل شابلن ولويد ، قد برع فى تطوير حوادث رتيبة مثيرة للضحك .

إننى أعتقد بأن شخصية كيتون الكوميدية يمكن تمييزها عن غيره من الكوميديين بعلاقاته بالنساء . إن شخصية كيتون الكوميدية تحتاج ، على ما يبدو ، فتاة لأن ذلك هو الشىء الذى ينبغى عمله . وفى فيلم « الجنرال » نرى جونى الذى يضطلع كيتون بتمثيل دوره ، يقابل فتاته وكأنها شقيقة غير مرغوب فيها اللهم سوى فى صحبته كرفيقة سفر . وهو أساساً يصور رجلاً صغيرًا فى صراع مع عواطفه المخدرة ، فهو لا يتجاوب كما يفعل الرجل العادى ، وهذا الانحراف عن التجاوب يؤدى إلى خلق كوميديا ..

إن كثيرًا من النقاد معجبون بالدور الفريد الذى يلعبه هذا الكوميدى ولكنهم لا يرون حدود هذه الشخصية ، فهذه الشخصية تثير الضحك أكثر ما يكون عند حدوث طوفان وحينما يتولى جيش مهمة المطاردة ، وفى غمرة الفوضى والاضطراب نرى وجهه المخدر لا تختلج فيها عضلة واحدة وأن جسمه ينحنى بزاوية قدرها ٤٥ درجة فى خضم هذه الأحداث . إذن : إن عدم تجاوب هذه الشخصية وتفاعلها مع الأحداث ، هو سر شخصية المهرج التى يمتاز بها كيتون .

إن تقييد هذا التجاوب والتفاعل لا يسمح بالأبعاد التى تمتاز بها شخصيتا لويد وشابلن . وقد يتعاطف جمهور المشاهدين مع محنة هذين المهرجين بسبب تفاعلهما الطبيعى ، ولكن كيتون لا يستطيع أن يجعل الجمهور ينفعل مع مصير الرجل المغفل الذى يقوم به ، ولا ريب فى أن مشاركة الجمهور وانفعاله أمر ضرورى فى بناء قصة

دراماتيكية .. وهذه مشكلة من مشاكل خلق الكوميديا التى كان هارى لانجدون يتمتع بها .

إن عدداً قليلاً من الناس هم الذين مازالوا يتذكرون هارى لانجدون كواحد من الكوميديين العظام الذين ظهروا فى أواخر العشرينيات ، ولكنه فى الحقيقة نافس شابلن ولويد وكيتون فى الشهرة خلال الثلاث السنوات التى أنتج فيها أروع أفلامه – من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٢٧ . وكان يعتمد على تمثيل دور « ولد صغير تائه » حيث يمثل أقصى حد من السذاجة عند شاب دون أن يجعل منه شخصًا معتوهًا ضعيف العقل ، إن صورة « الطفل الرجل » قد جعلته يختلف عن كبار الكوميديين الآخرين .

وكان أقرب إلى الصورة الكوميدية للممثل الكوميدى ستان لوريل ، والذى كان مع هاردى يمثلان الزوجى الشهير .

وفى حين أننى أجد معظم أفلام لانجدون الروائية وكثيرًا من أفلامه القصيرة مضحكة ، إلا أن هوائية صورته الهزلية لم تصادف قبولاً واسع النطاق ، إن غالبية جماهير النظارة والنقاد الذين كان لهم حظ مشاهدة بعض أفلامه يدركون رزانة تمثيله ويعترفون بسحر تمثيله الكوميدى ، على أن سذاجة شخصيته الهزلية تقيد انطلاقه .

لم يكن لانجدون يستطيع القيام بالألوان المختلفة من التمثيل الهزلى التى كان يقوم بها شابلن ولويد بسبب تعدد شخصياتهما المعقدة .

ومن ثم فإن أخطاء اختيار لانجدون لشخصيته الهزلية تضعه على مستوى أقل من شابلن ولويد . وكان من النادر أن يتخذ هارى أى إجراء ضد بحر المتاعب الذى كان يصادفه . لقد كان لشخصيتى شابلن ولويد جانبًا عدوانيًّا ، وهكذا ، فإنهما كانا يشتركان فى صراعات حادة وقوية . وكانت هناك لحظات من العنف حيث كان تمثيلهما يشمل ضرب خصومهما وعضهم ، وكثيرًا ما يكون هذا الخصم ثورًا فى ضعف

حجمها . وكان عملها مطعما بمشهيات الهزل الهجائى التى سهلت التنوع وساعدت على دفع سياق القصة وتحريكه نحو الصراع السريع الحركة ، وكانت قوة لانجدون تكمن فى ألوان ألبانتوميم ، ولكن شابلن كان يؤدى مثل هذه الألوان الهزلية بطريقة أكثر فعالية ..

وإننى أعتقد أن لا نجدون يكون فى أحسن حالاته حينما تلاحقه وتطارده امرأة ذات نزعة عدوانية . ونحن نستطيع أن نلاحظ فى فيلمه « الرجل القوى » الذى ظهر فى عام ١٩٢٦ وفيلمه « السراويل الطويلة » الذى أنتجه فى عام ١٩٢٧ سياق الحالات حيث يكافح هذا الرجل الصغير من أجل « عذريته » .

لقد كان الجنس أحجية كبيرة من أحاجى شخصيته الهزلية ، وكان تصوره للحب بين الرجل والمرأة مثل تصور الطفل – أى أنه كان يتوق إلى المرأة ولكنه كان يريدها ، على ما يبدو ، كمجرد صديقة .

لقد ترك هؤلاء الكوميديون الأربعة العظام – شابلن ولويد وكيتون ولانجدون – تقليدًا هزليًا استمر ، إلى حدٍ ما ، حتى عصر الشاشة الناطقة . ولعل لوريل وهاردى أكثر الكوميديين موهبة لإدماج الفن الذى تطور فى العشرينيات بالسينما الناطقة . وبالإضافة إلى ذلك أظهر «جوأ. براون» قدرة على ذلك التقليد. ولقد استخدم فى أفلامه مادة القصة الناجحة التى أوجدها لويد وكيتون . وكان عنوان أحد أفلام براون « الصبى المحلى يصيب نجاحًا » . ولقد استمر هذا التراث فى الأربعينيات والخمسينيات ونهج نهجه كوميديون مثل رد سكيلتون ودانى كاى وجيرى لوى . ولو كان لدينا فسحة كافية من الوقت ، لسقنا هنا بعض الأمثلة عن اختيار الشخصيات الهزلية وسياق القصة التى لها علاقة مباشرة بالمهنة القديمة . ونظرًا لأن مستوى معظم هذا العمل أقل من مستوى عمل الكوميديين الأربعة العظام ، فإنه لن يكون من المجدى إيراد بعض الأمثلة .

إننى لا أعنى بذلك أنه لا يمكن لعصر آخر من عصور السينما الكوميدية أن يبرى عصر السينما الناطقة ، إننا مقيدون بمدى منظورنا لأننا لم نلق نظرة فاحصة على الصفات التى تتمتع بها أفلام و. س. فيلدز وأعمال إخوان ماركس وأفلام لوريل وهاردى. لقد كانت الكوميديا الصامتة فى أسلوبها المركز والمبسط والمختار بمثابة شكل نقى من الدراما الهزلية التى لها سحرها الخاص تمامًا كما كان لشكل المسرح القديم.

على أن ثمة شيئًا آخر أريد أن أقوله وهو أن أعمال شابلن ولويد وكيتون ولانجدون ستعيش طويلاً جدًا. فقد قدم لنا هؤلاء الكوميديون العظام روائع لن تخفت شعلتها وستظل تؤثر على الأفلام الكوميدية التى لم تنتج بعد.